جامعة قطر
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
مؤتمر الدوحة الرابع لحوار الأديان

دور الأديان في بناء الانسان

المطران جورج صليبا
جبل لبنان

التعدّدية وقبول الآخر

هناك حديث يقول : لو شاء ربّكم لجعل الناس أمّة واحدة ، لكنّه يؤكّد " يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم ً شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم " (الحجرات ١٣). وهذا يؤكد لنا تعدّدية الجنس البشري كأفرادٍ وأممٍ وشعوب وقبائل / لكلّ منهم ميّزاته وخصائصه، ما يجعل الفوارق بينهم سبيلاً ً لمعرفتهم بشكل أدق وأعمق. فنطلق الألقاب والصفات على كل منهم بما يميّزهم في مسيرة الجنس البشري وارتقائه وتقدّمه.

هذا نسميّه في علم الإجتماع " التعدّدية" والتعددية هي فضيلة الحريّة التي تميّز الأفراد والجماعات والمجتمعات والأوطان على امتداد الكون جغرافياً وحضارياً وثقافياً . وهي التي تثري الفكر البشري والمعرفة التي هي ملك العقل البشري أبداً . وبهذه المعرفة ترتقي وتتقدّم الأمم والشعوب والأفراد بقدر ما يكتنزون من مواهب وعطايا واستيعاب وإدراك وعطاء. ومن هنا تأتي المبادىء مجسّدة لضرورة التفاعل الإنساني على مختلف المستويات والعلاقات وتبادل الأراء والأفكار والمنافع ، كلّ بما حباه الله وأنعم عليه من هذه الخصائص والإمتيازات ، علماً ً إنّ الكلّ بحاجة الواحد للآخر. والمثل الشائع يقول " الناس بالناس والكل بالله".

في المسيحية اعتبر القديس مار بولس الرسول إنّ البشريّة مجتمعة هي جسم واحد يكمّل أعضاء هذا الجسم واحدها الآخر. فلا يمكن أن يكون الجسد سليماً ً وصحيحاً ً ومعافى إذا فقد أحد أعضائه. فلا غنى عن العينين للبصر ، ولا عن الأذنين للسمع، ولا عن المنخرين للشم، ولا عن الفم للنطق وسواها. ولا يمكن ان يحلّ عضوٌ محلّ آخر ، فلكلّ ً منها واقعه وموقعه والحاجة إليه . فلا تقول الأذن لا أريد العين لأني لست عيناً ً ، ولا الرّجلان لا نريد اليدين لأننا لسنا يدين. فالجسم ناقص إن فقد الرجل أو اليد أو العين أو أيّ عضو آخر من البدن ، وكماله وتمامه يأتي بوجود كلّ هذه الأعضاء مجتمعة في الجسد.

26-APR-2006 16:52 P.01/38

والمجتمع الإنساني بحاجة بعضه الى بعض ، فلا يمكن الإستغناء عن العامل والمعلم والطبيب والمهندس ورجل الدين والمفكر والمحامي والغالب والمغلوب والقريب والبعيد والغني والفقير والرجل والمرأة والمتعلم والجاهل المؤمن والملحد . فهذه وسواها تؤلف المجتمع البشري.وبالتناقض تعرف الأمور غالباً.

وكذلك ، فالأديان على تنوّعها مع الملتزمين بها والمتنكرّين للأديان والبعيدين عن تعاليمها ، والمبادىء والتعاليم والأفكار السامية والعادية والأمم القويّة والضعيفة ، المهمّةو العادية : والإنسان كل إنسان في كل زمان ومكان ، هو حاجة ماسة لكمال المجتمع البشري.

وهذه كلها هي تعددات وتنوّعات تتفق وتختلف ، لكنها ضرورة لمتابعة مسيرة البشرية. يضاف إلى ذلك الأجناس والشعوب والألوان ، كالشعب الأسود والأبيض والأسمر والأصفر والأحمر وسواهم هم جزء من هذا التعدّد الذي شاء الله ، ان يكوّنوا النسيج البشري بهذا التنوّع. ويتميّز الواحد عن الأخر بصفات ومواهب خصّها الله كلاً منهم بجزء منها أو اكثر. وهكذا تتكون الحاجة لدى الواحد إلى الأخر ، والكل الى الكل. وتستقر التعددية لتكون العنوان الشامل والجامع للجنس البشري. ولكل دينه ومبادئه وأخلاقه وعاداته ، الأمور التي تميّز هؤلاء ليكونوا جميعا مرآة تعكس الصور على الجميع.

في كثير من المناسبات تقود التعدّدية الى صراع واختلاف. وفي مناسبات أخرى تدعو التعدّدية الى التنافس ، فيكون هذا التنافس بنّاءً أحياناً وهدّاماً في أحيان أخرى. لكن لا ضير في المنافسة، فهي عنوان حرية الإنسان ومساعيه لتحقيق الأفضل لأن الحياة هي عقيدة وجهاد كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

" قف دون رأيك في الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد "

من هنا، فالتعدّدية على الرغم من دخولها في كثير من الحالات ميدان الإختلاف ، ترى إنّ هذه الإختلافات والخلافات مع تناقضاتها حيناً والتقاءاتها أحياناً أخرى ، تثير حوافز الواعين ليستفيد الواحد من الآخر والمجتمع من الآخر والوطن من الآخر، وتجمل الحياة في تعدّدياتها وأشكالها ومعطياتها المتنوعة .

لو فكرت المجتمعات أفراداً وجماعات بعقل حصيف ورأي راجح ، واعتبرت الآخر صورتها ، لتملكت الطمأنينة وراحة البال أجواءها ، والمدى الذي يجمع الأفراد والجماعات على حدٍّ سواء. ولكن إن تحكّمت الأنانية وحب الذات وسيطرت على قلوب الناس وعقولهم ، لما كان هناك مجال ان يتفاهم أحد ولا أن يُقبل على التضحية أحد. ومن هنا فالفوضى ستسود هذه المجتمعات مهما صغرت أو كبرت. لهذا تؤكد الأديان والرسالات السماوية والحكمة المعطاة للناس مجاناً من السماء : أنّ التعدّدية هي بركة للبشرية، والتنوّع يعني الغنى وفيض المعرفة لدى الملتزم بقبول هذه المبادىء ليمارسها الإنسان بعقل وحكمة وطيب خاطر.

الأنانية هي العدو الأكبر للانسان . نقرأ مثلاً في بداية الخليقة الصراع البشري بين شقيقين هما قابين (قابيل) وهابيل. الأنانية هي العدو الأكبر للتعدّدية . عندما حسد قابيل أخاه هابيل الذي قبل الله قرابينه وتقدماته ورفض تقدمة قابيل. فنسمع قابيل يقول لأخيه هابيل ان الأرض لا تسعني معك بل لا تحملنا معاً ، فأقبل على أخيه وقتله. وكانت هذه الواقعة بداية الصراع البشري ونفوذ الشر.

من يتأمل بتمعّن وحصافة وعقل مستنير في هذه الحادثة يستنتج ان الصراع البشري ليس سوى الأنانية والاستئثار والطمع وحب الذات ،الصفات التي لا تليق بالكائن البشري المخلوق على صورة الله ومثاله. فأرض الله كبيرة وواسعة ، ولكلٍ مكانه ودوره وأهميته ، وهي التي تستوعب الجميع. لكنها صفة النقصان وعدم الكمال التي تقود الانسان إلى العثرات والسقوط .

مع ازدياد الجنس البشري تنوعت الأمم والشعوب والمذاهب والمشارب والأديان ، الأمور التي أضفت على الخليقة غنىً وثراءً، وفي نفس الوقت تعاسة وشقاءً . وقد ذهب مليارات البشر ضحايا عبر هذا التاريخ الطويل لظهور الانسان على الارض واستفحل الشر أكثر فأكثر هذا التنوع ولم يعد مكان للعدالة بين الناس ، بل بالعكس ، كلما تقدم الانسان في مراقي المعرفة والمدنية والنجاح ، كلما ازدادت المتاعب والمجازر في صراع بدأ ولم ينتهِ بعد.

المجتمعات الدينية والملتزمة أخذت بمبدأ التدين وسيلة للاعراب عن صدق معتقداتها وأصالتها، إن كانت هذه الأديان تدعو الى عبادة الله الواحد الأحد . فيما رأت الديانات التي تعبد المخلوقات دون الخالق ، إن الحق هو في حسن اختيارها لهذه العبادات وفضلها على عبادات سواها..

من هنا نقرأ في العهد القديم من الكتاب المقدس الصراع بين المؤمنين بإله واحد خالق السموات والأرض وكل ما فيهما، وبين هؤلاء البعيدين عن عبادة هذا الخالق العظيم.. تجلت هذه الصراعات في الحروب المباشرة وغير المباشرة التي حفلت بها تلك الحقب الطويلة من تاريخ الإنسان..

ولما جاءت المسيحية نهجت السبيل نفسه في رفض العبادات الوثنية وأخذت مبدأ الدعوة الحقيقية لعبادة الله الواحد الضابط الكل ، واصطدمت باليهودية مع كونها دعوة الى عبادة الله الواحد على اسس ومبادىء ناموس العهد القديم . واستمر النزاع والصراع بينهما على الرغم من انتماء كثيرين من اليهود وقبولهم المسيحية ديناً جديداً يدعو الى ملكوت السموات . وكذلك انضمت الوثنية إليها بأعداد هائلة تشكل الأكثرية الساحقة في المسيحية. وكانت البشارة والكلمة وسيلة الى نشر هذه الرسالة بل هذه الديانة الجديدة.

واستمرّ الصراع البشري بين المسيحية والوثنية والسلطات الحاكمة في الشرق والغرب، بل في كل مكان. وتجلت الخلافات والمواقف السلبية في الحكام والمسؤولين الذين لم يتحملوا بروز قوة اخرى تنافسهم السلطان . فاضطهدوا وقتلوا هؤلاء الذين يخالفونهم الرأي والدين والإنتماء.

وفي القرن السابع الميلادي بدأت الدعوة الاسلامية بظهور دين جديد هو الاسلام الذي تجلى في صحراء العرب حاملاً رسالة جديدة عنوانها (الله أكبر) . فبين رافض لهذا الدين وراض به ، اخذ الصراع يستفحل ويمتدّ امتداد القرون بين الاسلام والجاهلية والوثنية واليهودية من جهة وبين الاسلام والمسيحية من جهة ثانية. وبرز مذهب التكفير ، الأمور التي جعلت البشرية تزداد خلافاً وتفاوتاً وتعصباً تجلت في الاضطهادات والدماء المسفوكة ثمناً لهذا الصراع.

اننا نفتقر الملتزمين بدينهم ويحملون العصب الصحيح الذي يخالف التعصب. فالعصب الديني ايجابي، بينما التعصب هو سلبي غالباً والذي يدّعي عبادة الله ومحبته ويحمل الحقد والكراهية ويسعى الى اضطهاد الأخرين ليس محباً حقيقياً ولا عابداً حقيقياً لله. وقد علمنا يوحنا الرسول في المسيحية بقوله : إن كنت لا تحب أخاك الذي تراه فكيف تحب الله الذي لا تراه. فالتعصب الديني هو نقيض للتديّن. وما أحسن صفات المتدينين السموحين المحبّين. وهذا ما علمنا إياه السيد المسيح بقوله **" أحبّوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم. ترى هل نحن ملتزمون بهذه المبادىء وعاملون بأحكامها ورسومها وفرائضها. ليتنا نطبّق هذه الأقوال بالأعمال.**

هناك قاعدة ذهبية تقول(**تنتهي حريتك حيث تبدأ حريّة الآخرين**) وفي هذا السياق ، إننا نستنكر وندين ونشجب كاريكاتورات الدانيمارك والنروج وسواها التي أساءت إلى الاسلام بشخص نبيهم ورسولهم ومنظم الأعلى ، ما لم يقره دين أو يقبله منطق أو يوافق عليه انسان، فهذا عمل حقير ومدان جملة وتفصيلاً.

وبالمقابل، نستنكر ردات الفعل السلبية إن كان في بيروت أو اي مكان من الدنيا مع مسيحيين لا علاقة لهم بهؤلاء لا من قريب ولا من بعيد. ونحن مع شركائنا المسلمين حيث نعيش،

نحمل نفس الهموم ، كما حملنا عبر التاريخ مظالم البيزنطيين والفرنجة الذين جاءوا باسم الصليبيين وهم أبعد ما يكونون عن الصليب والمسيحية الحقيقية. فنسأل لماذا لا يميّز بعض المسلمين بين الذين لا علاقة لهم بتعاليم المسيح والمسيحية بل يدّعون ذلك وبين المسيحيين الذين يكوّنون معهم نسيج الأوطان والمجتمعات المشتركة.. لكنها أحقاد دفينة تنتظر المناسبة لتفجّر هذه النيات لسوء الحظ.هذا ما يقودنا ويدعونا دائماً الى لفت النظر إليه.

ونظرة سريعة إلى ما حدث في الاسكندرية، أي مبرّر لهذا المدعو معتوها" ومتخلفا" عقليا" ليتصرّف ضد المسيحيّن والأقباط تحديدا" ويشاركه آخرون.. هل الاسلام يعلمهم هذه السلبيات ، لا لعمري.. وهل تعدّى عليهم النصارى من قوم عيسى يوما" ، كلا وألف كلا..

أنا لا أصغي ولا أتورّع أن أقول إن هؤلاء الأشرار ينفذّون مخططات لأخرين للاساءة إلى مصر بسلطتها ومسؤوليها ، مدفوعين ممن يسعون الى نشر الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار هناك ، تبريراً للمخططات الصهيونية الزارعة فساداً" في العالم عامة وفي المنطقة خاصة . ونؤكد ان المستفيدين الوحيدين هم الذين يدورون في فلكها.. ليت شركاءنا المسلمين ومواطنينا العرب يمعنون النظر بدقة فلا ينجرفوا الى أمثال هذه المواقف. لأنه إن جاء الطوفان سيهلك الجميع.

فما ينفع المسلمين ينفع المسيحيين والعكس صحيح.

وكذلك، ما يجري على الساحة الفلسطينية والعراق هل نربطه بعوامل دينية ، كلا . فهذا مرفوض ومستنكر ولا نبرر الاصابع الصهيونية العاملة في الخفاء. غير ناسين قول الزعيم البريطاني وينستون تشرشل: في السياسة ، لا توجد صداقات دائمه او عداوات دائمة بل مصالح دائمة.. فلنتأمل ..

ولعلّ فيلسوف المعرة أبا العلاء المعرّي ، هو خير من يصوّر لنا ويجسّد هذا الواقع بقوله :

ضجة في اللاذقية بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدقّ وذاك بمئذنة يصيح
كلّ يمجّد دينه ليت شعري ما الصحيح

وما نقوله عن الأديان نقوله أكثر في الحياة السياسية والمصالح القومية والبشرية والحياتية. لقد تبيّنت لنا اكثر علامات وسمات هذه الخلافات في الحروب والانقسامات على امتداد التاريخ حتى يومنا هذا وكل الدلائل تشير الى الآتي من الزمن.. ما دام انسان يرعى شؤون الكون ويستثمر الطبيعة وخيراتها ويهيمن على مقدرات الوجود..

هذه صور وملامح واقعية وحقيقية لمسيرة الانسان مذ خلقه الله وأعطاه سلطان إدارة الكون والطبيعة والمخلوقات على تنوعها.

استفادت البشرية من خبراتها المتنوعة في العالم على امتداد الدهور والعصور والظروف ، ورأت ان الصراع الديني السلبي ليس من جوهر الأديان ولا من رسالتها التي تدعو الى الكمال والى التمسك بالقيم ومكارم الأخلاق. وإن المثل السامية والسعادة الحقيقية أن يسود السلام المجتمعات البشرية على تعدّديتها وتنوعها. وإن الدين هو دعوة مستمرة الى زرع هذه الفضائل وهاتيك القيم والمسلمات، فدعت المتدينين والملتزمين بمبادىء الدين أينما كانوا، أن يروا في الانسان كل انسان أخا لهم يشاركهم كل الصفات والميزات التي متعهم الله بها. فأخذوا يرجعون الى التعمق بما أتت به كتبهم المقدسة من توراة وانجيل وقرآن ومبادىء سامية وفي تعاليم الديانات التي تلتزم تعدّد الآلهة ولا تقصد الإساءة الى الغير . فتنادى الكل على التزام الايجابيات ونبذ السلبيات ، واختيار المبادىء والتعاليم والأسس التي تبني المجتمع البشري، توخياً وطلباً لمبدأ ما يجمع ويوحّد ويبني ويرفع ويسمو بالانسان.

ونبغ في المجتمعات البشرية عبر العصور نخب من الرجال والنساء زيّنوا العالم بعصارات أفكارهم وآرائهم ونظرياتهم ومناهجهم . وتبادل الناس هذه المفاهيم والآراء والتطلعات والمبادىء وطفقوا يبحثون عن السبل والطرق التي تقود الى تجسيد وتحقيق هذه المبادىء وتحويلها من نظريات جامدة الى ممارسات حية معاشة.

ومن الجهة الثانية ، رأت البشرية عن طريق العلم والمعرفة والاقتصاد والسياسة والاختصاصات المتنوعة ، ان الغاية الفضلى والهدف الأسمى ان يرتع المجتمع البشري بمساحات واسعة للتفاهم وتبادل المنفعة على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والأوطان والحضارات المتعددة والمتنوعة على الرغم من المصالح الخاصة والعامة، فيطمئن الكل وينظر كل من زاويته ان الخير يجب ان يكون متبادلاً بالحد الأدنى المقبول لدى الكل لتسود الحرية ويعبّر كل واحد عن مكنونات قلبه ، مما يمهّد الطريق لقبول الآخر. وبهذا القبول نصل الى مبدأ(**أقبلك كما أنت وكما تريد ان أقبلك شريطة ان تقبلني كما أنا وكما أريد ان تقبلني).**

ومع تقدّم الأيام وانتشار المعرفة ونموّ الثقافة عند البشر ، وبداعي الإختلاط والتفاعل وتعامل الناس مع بعضهم البعض ومع تبادل المصالح والمنافع على أنواعها، انتشرت ثقافة معرفة الآخر أكثر.

فبعدما كانت المعرفة مقتصرة على حدود جغرافية معيّنة ، وفي فترات تاريخية معيّنة ، وبالقريب من الافراد أكثر . بداعي هذه الإختلاطات والعلاقات. وبفضل وسائل الإعلام المتنوعة المكتوبة والمقروءة والمسموعة والمنظورة. تعمقت المعرفة البشرية ، وصار في متناول الفرد والجماعة وبأسهل الوسائل والطرق ما يغني معرفة الجميع ويثري ثقافتهم ويعزّزها. فتفاعل الكل مع الكل، ناقلاً الواحد عن الآخر والجماعة عن الجماعة والأمم عن الأمم، المعلومات والأفكار بشكل واسع وبسرعة فائقة.

ومن هذه المعارف انتقلت الثقافة التي ندعوها (**قبول الآخر**) ، والمثل يقول:" **المعرفة قوّة والجهل ضعف**" ، بل إنّ الانسان عدوّ ما يجهل. وبالمقابل ، الإنسان صديق ما يعلم حتى إذا خالفه الرأي واختلف معه في الموقف والقرار. وهذه سمة وميزة العارفين والمثقفين والعاقلين والمستعدّين لتبادل هذه المفاهيم وتقاسمها مع الآخرين.

وبرزت ثقافة مميّزة تُسمّى (**التنوّع في الوحدة وحق الإختلاف وحرية التعبير**). كل هذه الأمور قرّبت الناس بعضهم إلى بعض. وسهّلت مبدأ قبول الآخر بشكل أعمّ وبالتزام أدقّ وأهم .

وتكوّنت النظريات القائلة **بحق التعبير عن الإختلاف وليس الحق بالإختلاف**. وجاء التعبير مصوّراً هذه النظريّات. فمن ينظر الى كأس الماء ، فمن يرى نصف الكأس مليئاً ومن يرى نصف الكأس فارغاً. والإثنان على حق فيما ينظران ويعبّران. فالماء يشغل الكأس مملوءًا او بعضاً منه ، وهذا لخصه علماء الإجتماع وعلماء النفس والفلاسفة بنظرة الإنسان وواقعه سلبياً او إيجابياً. وفي كل الحالات نقبل الواقع كما هو ، لأن هكذا تقضي الحكمة والنباهة. وفي هذا قمّة الكمال في الحياة الإنسانية في تعدّد وجوهها.

الإختلاف اذاً سمة ايجابية وليست سلبية غالبا ، وهذا هو في جوهر التعدّديات الإثنية والحضاريّة والفردية. ولكل فرد أو أمّة او مجموعة بشريّة الحق في اختيار وسائل التعبير بما لا يسيء إلى الآخر حتى يتعمّق التفاعل البشري ونتحوّل من مبدأ الصراع إلى رسالة الحوار. **والحوار مهما كانت نتائجه هو خير وسيلة لبلوغ الحقيقة ومعرفة الآخر**. وقد تعلّمنا ونعلم إنّ الحوار يهدم خمسين بالمئة من الجدران ويختصر المسافات ويقرّب بين المتحاورين. وبهذه اللغة نصل الى ميّزة قبول الآخر . فلا يضطرب أحد عند سماع كلمة الاختلاف، فالاختلاف حريّة ، والتعبير عن وجهات النظر سموّ في المعرفة والمفاهيم الإنسانية.

ليس مبدأ قبول الأخر أن يستبدل أحدٌ دينه او عقيدته او رسالته ليكون مقبولاً عند الآخرين. فهذا يتناقض ومبدأ" **قبول الآخر**". لأن نقيض هذا هو الذوبان وفقدان العقيدة والدين والهوية والانتماء.

ويلخص الدكتور حامد بن أحمد الرفاعي* مواصفات قبول الآخر بالحوار بالمواصفات التالية: إحترام حرية الإختيار- احترام مبدأ الإختلاف في الرأي - احترام التعددية الثقافية - احترام التعددية الدينية- العلم والفهم والدراية في مادة الحوار- اتقان فنون المحاجّة والجدل- إتقان مهارة العرض والبيان - التكافؤ مع ثقافة الآخر وقدراته- اتقان لغة الحوار- البعد عن الفوقية في البيان – البعد عن روح الغلبة والانتصار- استبعاد نزعة الإكراه – التأكيد على ان الحقيقة غاية مشتركة- الصبر والمثابرة- إلتزام الأحسن من القول- إكرام الآخر واحترام خصوصيّاته- بذل المودة وحسن المعاملة- التأدّب مع الأكبر والتواضع مع الأصغر سناً- حسن المظهر والملبس والرائحة- تخيّر الزمان والمكان والحال.

وبعد:

فلا بدّ من التأكيد في ميادين الحوار أن الناس جميعاً من حيث المبدأ والهدف شركاء في ثلاث غايات:

١- عبادة الله تعالى
٢- عمارة الأرض
٣- تحقيق المصالح

ويتابع الدكتور حامد بن أحمد الرفاعي قوله : **لذن افترقت بنا الطرق بشأن العبادة الروحية ومنطلقاتها**) . فنحن مدعوّون بأمر ربنا- جلّ شأنه- لتفعيل قيمنا وشرائعنا المتنوعة: من أجل التنافس في الخير: من أجل عمارة خيرية للأرض: وإقامة العدل: لتكون المسيرة البشرية لصالح كرامة الإنسان وسلامة البيئة والتعايش البشري الأمن".

إذا ساد مبدأ الإعتراف بالتعدّدية وقبول الآخر المجتمع البشري ، ستكون حياة الناس طمأنينة واستقراراً في واحةمن التفاهم والإطمئنان الى سلامة الطويّة والنية.

---

*

راجع كتاب " نحن والآخر وإشكالية المصطلح والحوار" طبعة ٢٠٠٦- صفحة ٥١- ٥٢
سلسلة اصدارات (لتعارفوا)عام ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م.